

ذكرى أستاذى الراحل

الدكتور يعقوب صروف

بمناسبة ظهور أول أثر للمقتطف بعد وفاته

الرواد

٣١٦ صحيفة من قطع العصور . مطبعة المقتطف . الثمن ٢٠ قرشاً . مصر ١٩٢٧

بعد ان توفى سبينوزا هب أصدقاؤه الى نشر ما خلف من مؤلفات بعد موته . وكان كتابه « الأوبرا بوستيوما » أول ما وقع عليه اختيار الاصدقاء لطبع وينشر فى الناس . ولم يكد ينشر هذا الكتاب حتى هب اللاهوتيون خفاً وثقلاً يناهضون آثار الراحل العظيم ، ولم يأت يوم ٤ فبراير سنة ١٦٧٨ حتى صب اللاهوتيون لغتهم على الكتاب زاعمين أنه كتاب « تمجيد لم يظهر له من مثيل منذ خالق العالم حتى اليوم » . ولم يمض على هذا الحادث قرنان من الزمان حتى تهيأت النفوس وأعدت العقول لان يقام لاسبينوزا أثراً تذكاريّاً كان من حسن الحظ ان يداشنه « رينان » أحد عظماء القرن الماضى ، ومن أكبر مؤرخى النصرانية ، مشيراً بأصبعه الى النافذة التى كان يطل منها سبينوزا على ميدان بافلجوين فى لاهاي قائلاً :

« لعل الله كان أقرب الى هذه النافذة منه الى أى مكان فى الارض » .

وفى يوم الاحد ١٠ يولييه سنة ١٩٢٧ كنت حيث اعتدت ان التقي باستاذى الراحل العظيم الدكتور يعقوب صروف بعد ان وصل الى سمعى نعيه ببضع دقائق ، ولم أكد أقف أمام حجرته حتى رجعت بى الذاكرة الى حكمة رينان فقلت فى نفسى « لعل الله كان أقرب الى هذه الحجرة منه الى أى مكان فى الارض » . وأى مكان فى الأرض يمكن ان يكون الله أقرب اليه ، أو هو أقرب الى الله ، من مكان يفيض بالعلم والعرفان والعطف والخلق الرضى والسماحة وحب الاقربين والأبعدين على السواء ، كأن منازل العلاقات البشرية قد تساوت فيه .

فلا يحس قريب بأنه أكثر دنواً وأوصل رحماً من غريب تجمعه بمن حل فيه
رابطة علم أو أدب أو أية علاقة من العلاقات الدنيوية التي يشعر بشر فان بأنه
ازاءها من حاجة الى أدل يرجى أو معروف يسدى ؟

ليت شعري . هل كان الاستاذ الراحل العظيم يحس بدنو الاجل وهو بعد
في أظهر مظاهر التوبة وتقياً وجسمانياً ؟ أم كان صفاء نفسه يوحى اليه بأنه قريب
لان يدعى الى العالم الثاني فيحدثني كلما التقيت به خلال الاشهر الثلاثة التي تقدمت
يوم مصرعه عن الموت وعن الخلود وعن الفناء وعن الله وعن الأثير ؟ كنت
واياه في حيرته قبل ان يختاره الله لجنابه ببضعة أسابيع وجرى بيننا الكلام في
تاريخ الحضارة العربية ، ولي فيها رأى كان لا ينفك الاستاذ عن تشجيعي على
المضي فيه والتمكين له بكثرة القراءة والبحث ، وما زلنا نتنقل من موضوع
الى موضوع حتى عرض لنا الكلام على أثر الثقافة اليونانية في حضارة العرب ،
وأخذ يكلمني في الدلالات اللغوية التي يمكن ان تكون برهاناً على ان العرب
ترجموا قواعد علم العروض عن اليونان ومن ثم طبقوه على البحور العربية ، وبعد
ان أبدى أسفه لقلته عامه باغة الاغريق القديمة ليكون أقدر على هذا البحث ،
التفت الى فجأة بعد صمت قليل كما كانت عادته اذا أراد ان يغير مجرى الحديث
وقال : اذا لم تكن حياة في عالم آخر غير هذا العالم كانت هذه الحياة الدنيا عبث
في عبث . فقلت ليس عندنا من برهان علمي يحقق هذه الاحلام ؟ فقال اذا
كانت هذه الحياة مقدمة فلا بد لها من نتيجة ، وأية نتيجة يؤيدها القياس
المنطقي أكثر من الاعتقاد بحياة أخرى تكمل ما في هذه الحياة من مناحي النقص ؟
فاجبته لعل هذه الحياة لا تكون مقدمة بل تكون نتيجة ، اليها المرجع والمنتهى .
فاطرق قليلاً ثم قال وكأنه يناجي نفسه : الطبيعة سلسلة من السوابق واللاحق
وخط منظوم من المقدمات والنتائج لا تنتهي الا عند غاية لا نستطيع ان نقف على
ماهيتها . فسواء أ كانت هذه الحياة مقدمة أم نتيجة فالامر واحد . لان المقدمة
هي تحكم تسلسل الطبيعة مقدمة ونتيجة تؤدي بدورها الى مقدمة أخرى . ولا
أظن ان نظام الحياة يخرج عن نظام الكون في مجموعه . وكان صمت عميق
انسملت بعده الى ناحية من نواحي المكتبة وأخذت أقاب في كتاب من الكتب
العربية القديمة ، ولكن فكرتي كانت متجهة بكل ما فيها من قوة الحصر والتذكر

الى هذا الحديث القصير ، غير عالم أنه كان مقدمة لنتيجة ظلت حياة الاستاذ الراحل رهن عايمها الى أجل قريب .

واليوم أكتب هذا الحديث رواية عن الصديق الراحل .
 تالله ما أبعد اليوم ما بيننا وبينه . وتالله ما كان أقربه بالامس الينا . أفي لحظة واحدة يصبح الانسان مجرد رواية وخبر . بعد ان كان حقيقة ماموسة باليد مرئية بالبصر ؟ ولكن من يدرينا . لعل هذه الحياة تكون الخبر عند من يلمس الحقيقة العظمى بعد ان يفارق السر الكامن فيه هذا الهيكل الترابي ؟
 وبعد . فلست في موطن أستطيع فيه ان أطب في الالمام بذكرات سبع من السنين عقدت خلالها بيني وبين الاستاذ الراحل عرى الصداقة الصحيحة التي حات عروتها بموته ، ولكنها ستظل حية بذكراه . ولو أردت اليوم ان أحيط بكل ماتخال هذه السنوات السبع من التذكرات العلمية والمباحث العميقة التي تناقشنا فيها ، لما وسعني كتاب ضخم ألم فيه بنواحيها العديدة . ولكن حسبى اليوم ان أتكلم فيه كصديق وأكبر ظني ان هذه الناحية هي أظهر نواحيه كرجل وفيها تنحصر ماهيته الفردية . ولا أظن أنه كعالم إلا معدوداً من البيولوجيين أولاً . فلا المباحث البيولوجية التي تناوولها منذ زيف وخمس عاماً ، ولا الكلمات الاصطلاحية التي أكب على ترجمتها أو نحتها أو تعريبها ، كانت في متناول أحد من المشتغلين بالعلوم الحديثة في الشرق حينذاك ، اللهم الا بضعة أفراد من مجموع الأمم الشرقية التي تنطق بالضاد . وحسبنا اليوم أن نرى فكرة النشوء التي قامت من حولها معارك علم البيولوجيا خلال القرن التاسع عشر باجمعه قد أصبحت اليوم من المعارف العامة التي لا يستغنى عن الوقوف على دقائقها عقل مثقف على النمط الحديث في أنحاء الشرق العربي كله

أعتقد ، وأظن ان اعتقادي فيه كثير من عناصر القوة والحق ، ان الدكتور صروف ، رحمه الله ، قد حاز أكبر عقل النسيكاويبيدي ظهر بين الأمم الشرقية في العصر الحديث . عقل النسيكاويبيدي من تلك العقول النادرة التي شهد القرن الثامن عشر أعظم من امتازوا به أمثال ديدرو وفولتير وهولباخ ودالمبير ، وكوندورسييه ، وامتاز به هربرت سبنسر في القرن التاسع عشر ، وباكون وديكارت في حدود العصور الوسطى ، وبلينيوس وغيره في العصور القديمة .

غير ان لامثال هذه العقول متجهاً تتجه فيه ، وصبغة تصطبغ بها ، بل ان شئت .
فقل إن لها وحيًا وإلهامًا يجبرها على ان تتبع خطة لاثميد عنها وتجد من المتعذر
ان تتنكب طريقها المرسوم . فان امتاز عظماء القرن الثامن عشر بصفتهم
الفلسفية ، وان اصطبغ سببهم بنزعة التركيبية ، أو عرف ديكارت وباكون
بمخطتهم الاسلوبية ، فان أستاذى الراحل قد امتاز بنزعة العلمية الصرفة التى لم
يؤمن بغيرها طوال حياته ، فلم يحاربها فى عقله أسلوب من أساليب الفكر الا غلب ،
ولا نازلها انفعال من انفعالات النفس على كثرتها الا قهر وكسر .

على أنه كان فى أسلوبه العلمى على نقيض الكثيرين من علماء العصر الحديث .
وما نظن الا أنه كان على حق فى ان يناقضهم وأن يذبذ العكوف على طريقهم كما
وضعها فلاسفة القرن الثامن عشر ، أولئك الذين وضعوها لاثميدوا بها العلم
ولا لينشروا بها المعرفة ، بل لينصروا بها نزعتهم الفلسفية التى ساقى بهم الى
الاحاد والى انكار وجود الله .

من مفاخر القرن الثامن عشر أنه حدد الاسلوب العلمى تحديداً دقيقاً . غير
ان هذا التحديد مع الاسف كاد يلغى الطريقة العقلية الصرفة التى يقوم عليها
كثير من العلوم الحديثة ، فضلاً عن أنها الاساس الذى يقوم عليه صرح العلم
فى مجموعة . حددوا الطريقة العلمية بقولهم « كل ما لا تحقق وجوده الحواس
لا يمكن أن يكون صحيحاً » . هذه منقذة القرن الثامن عشر . أما منقذة القرن
التاسع عشر فاعتراف العلماء فيه بان من الاشياء التى لا ينكر وجودها العقل
مما لا يمكن اثباته من طريق الحواس ، وأقاموا على ذلك كثيراً من الدلائل العلمية
التي لا تنقض . ومن هذه الاشياء الاثير والعقل ووجود العالم المادى الخارج عن
حين الانسان ، والبعد الرابع فى النسبية . وكان أستاذى الراحل من أولئك
الذين اتبعوا الطريقة العلمية ولم يلغوا العقل . فدل بذلك على مقدار ما كان فى
نزعاته من حب الحرية العلمية ، وما انطوى عليه عقله الكبير من مطاوعات الشك .
واللا أدريه الفائضة بضروب المرونة الفكرية .

وما يدلك على متجهه الفكرى من شىء مثل كراهيته للنزعات المذهبية فى أيما
متجه اتجهت . فلا المذهبية الفلسفية وجدت الى عقله طريقاً ولا المذهبية القومية .
عرفت الى نفسه سبيلاً ولا المذهبية الطائفية أثرت فى وجدانه يوماً ولا المذهبية

الدينية قد اخضعت يقينه برهة واحدة ، بل ولا المذهبية العامة تركت في عقله يوماً من الأثر ما يمكن ان يكون حائلاً يسد في وجهه طريق التفكير المستقل القائم على وزن الحقائق ، ثم الحكم فيها حكماً بعيداً عن كل المؤثرات التي تبعث بها في النفس رسيس المعتقدات وثابت المذاهب .

وبعد . فإني كان الحزن قد فوت على قبل اليوم أن أكتب في أستاذي وصديقي الراحل شيئاً ، فإني أنهز صدور « الرواد » وهو أول أثر للمقتطف بعد وفاة الاستاذ العظيم ، لأن أقدم لروحه الطاهرة تحية تخرج من أعماق قاي صافية نقية الا من أظهر الذكريات ، التي سوف أحياها في وجداني أمانة أو ديماً اليه يوم نلتقي في عالم الارواح .

أما « الرواد » فجزء صغير جهد الصغر من ذلك اليم الزاخر الذي خلفه الاستاذ الكبير تحت اسم « المقتطف » . ولئن أردنا اليوم أن نلقى عليه بنظرة وجيزة نلم فيها ببعض أطرافه ، فانما نرجع بك إلى الناحية التاريخية التي تظهرنا على فضل الرواد لامن ناحية استكشافهم لأطراف الارض بل من ناحية تأثير استكشافاتهم في حرية الفكر وتحرير الضمائر من ضغط الدين في العصور الوسطى قامت حركة التجديد في أوروبا على ثلاثة قواعد : الاولى تحرير علم الفلك ، والثانية تحرير علم الجغرافيا . والثالثة تحرير الدين . فكان تحرير الفلك رهن على جهد كوبرنيكوس وغاليلايو . وكان تحرير علم الجغرافيا رهن على جهد ماجلان وخريستوف كولوم وغيرهما . وكان تحرير الدين رهن على جهد لوتر وشيعة . ولقد اشعت هذه النواحي الثلاث بأضواء أنارت جوانب الفكر ، فأخذ يتحرر شيئاً فشيئاً من القيود التي قيدته بها الكنائس منذ بداية العصور الوسطى الى أواخر القرن السابع عشر .

ولقد كان للكنيسة آراء وعلوم في كل فروع المعرفة . غير أن تحرير هذه النواحي الثلاث كان بداية ذي بدء حركة في التحرير تناولت كل فروع العلوم من قبل ذلك . ولقد ظلت الفكرة في الانسان مشايعة لرأي الكنيسة حتى أواسط القرن التاسع عشر حتى أبان داروين بكتابه الخالدين أصل الانواع وتسلسل الانسان ، ان الانسان أصله حيواني ، وقضى على الفكرة القديمة القائلة بأن

الانسان أصله سماوى انحط بالخطيئة ، وقرر حقيقة أن الانسان أصله حيوان
أخذ يضرب فى مدارج النشوء والارتقاء
واذا أردنا أن نضرب لك مثلاً لنقرب به فكرة تأثير استكشاف الرواد على العقول
ونحرير الافكار فلنضرب لك مثلاً بثلاثة معتقدات رسخت فى أذهان الناس فى
العصور وكان رسوخها سبباً فى تقييد أفكارهم من ناحية الدين لأنها كانت من
العقائد الثابتة التى توحى بها الكنيسة .

الأول : معتقد الانتيبود — وهو الاعتقاد فى وجود أناسى فى الجهة المقابلة
للجهة التى نعيش فيها من كرة الأرض . فقد أنكر ذلك القديس اوغسطين معتمداً
على نصوص فى التوراة والانجيل وقضى الرواد على هذا المعتقد .

ثانياً : ذلك الفزع المبهم الغامض الذى ألقاه فى روع الناس اعتقادهم باطلا
بوجود يأجوج ومأجوج . قال العلامة « وايت » « وقليل ما تجدد فى العهد القديم
— التوراة — من مقاطيع تفوق فى عظمتها وروعها تلك التى أوردتها حزقيال
فى تعذيب هؤلاء الاعداء الالداء . ناهيك بتلك المقطوعة المعروفة فى سفر رؤيا
يوحنا اللاهوتى فأنها قد ربطت بين الشعور العبرانى تلقاء يأجوج ومأجوج ،
وبين تصور جديد ثبتت أصوله فى صميم الكنيسة النصرانية الاولى » . ولقد
قضى الرواد على هذا المعتقد أيضاً لما استكشفوا أقطار الارض ولم يجدوا
ليأجوج ومأجوج أثراً .

ثالثاً : الرياح الاربعة — وهو معتقد مستمد مما ذكر فى الاسفار المقدسة .
ولقد قام هذا التصور كما ذكر « وايت » على اعتقاد ثابت فى حقيقة وجود هذه
الرياح ، فظهرت رموزها على الخرائط الجغرافية فى صورة أدمغة عظيمة الحجم ،
منتفخة الوجنات ، ترسل رياحاً زعازع فى اتجاه أورشليم . وكان هذا المعتقد مما
قضى عليه الرواد اذا استطاع بمسحهم الجغرافيون أن يخططوا كرة الارض
على حقائق ثابتة .

واذا أردنا أن نمضى فى ذكر الفوائد التى جناها العلم بالاستكشاف الجغرافى
لما وسعنا صدر هذه المجلة . ولكن يكفيننا أن نذكر أن أثر الرواد فى العلم والحضارة
لا يقل عما خلفه عظماء الفلاسفة وكبار المصلحين من آثار . فاذا كانت المقتطف تزود
العربية اليوم بكنز تبعثه من كنوزها الكثيرة التى خلفها منشؤها العظيم ، فأنها

انما تستخلص من الذهب بعض تبره ، لتستطيع أن توزع الكثر على الناس .
أقساطا على قدر المستطاع .

هذا ولا يجدر بي أن تمر هذه الفرصة دون أن أهنيء صديقي الاستاذ فؤاد
صروف الذى أورثه الاستاذ الكبير حملا ثقيلًا اعتقد أنه خير من يضطلع به ،
والذى أعرف ان «الرواد» لم يبرز في هذه الحلة القشبية الابجهدية وصائب نظره ،
وأختم هذه العجالة مملوء أملًا في أن تبلغ «المقتطف» أوجها الاعلى بحسن جهاده
وواسع اطلاعه على مر الاعوام والسنين
اسماعيل مظهر

الجداول — ديوان ابوماضى

الأول ١١٢ صحيفة ١٩٢٦ والثانى فى ١٩٢ صحيفة سنة ١٩١٩ طبع مرآة

الغرب نيويورك

لئن شعرنا بحاجتنا الى التجديد فى شىء ، فان شعورنا بالتجديد فى الشعر
وحاجتنا الى تغيير اساليبه العتيقة ، لينزل من مشاعرنا ابعد فى اغوارها . ولقد
حاول الشاعر الأديب إيليا ابوماضى أنه يجدد فى اساليب الشعر العربى .
وأن يسدو بمعانيه الى طباق لم يسم اليها الشعر فى العصور الأولى فنجح فى محاولته .
الى حد بعيد . ولا شك عندنا مطلقاً فى ان ديوانيه جديران بأن يكب الشباب
على درسهما والاستمتاع بما فيهما آثار الفكر والفن . وليس لنا ان نرسل الآن
فى الشرح والبيان فانه شعر الاستاذ إيليا لا يحتاج الى من يزكيه فلننقل منه شيئاً
فهو بذاته جدير بأنه يصل الى القلوب والافكار من غير احتياج الى توطئة .

جاء فى قصيدة له تحت عنوان الطلاس — وهو يتكلم عن الدير

قيل لى فى الدير قدوم أدركوا سر الحياة

غير انى لم أجده غير عقول آسنات

وقلوب بليت فيها المني فهى رفات

ما انا أعمى فهل غير أعمى ؟ لست ادرى

وقيل : أدري الناس بالاسرار سكان الصوامع

قلت : ان صـح الذى قالوا فان السر شائع